من الأدب الأندلسى

خالد الأندلس

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

فى الهزيع الثالث من الليل أو فى قرابته كان كل ماعلى وجه مدينة « البشكنس [1] » خادرا سادرا لاتسمع فيه نأمة ، ولاتحس حركة ؛ إذ لعب الكرى بمعاقد الأجفان ، وأخذ الوسن كل إنسان ، ولبست تلك المدينة الحافلة سرابيل السبات ، وطافت بأهليها أطياف من المنى أو الجوى ، وألمت بحلومهم الأحلام والرؤى ، فهذا صب أضناه الوجد ، وبرح به الهوى ، لم يدرك من حبيبته طلبته ، ولم ينل منها رغيبته ، فلجأ إلى الحلم يستعديه ، ولاذ بالخيال يستدنيه وكأنى به ينشد :

إن كان واديك ممنوعا فموعدنا وادى الكرى فلعلى فيه ألقاك

فهو يتخيل فى رقدة السحر حلو السمر ، وينظر بعين طيفه مالكة لبه ، وآسرة قلبه أسيرة لديه ، قائمة بين يديه ، يستدنيها فتلبى اختيارا ، ويأمرها فتأتمر ائتمارا ، قهرته فى وضح اللياح ، فملكها فى غسق الدجى ، واسترقته يقظ الحواس فاستولى عليها لايأبه يقظة الحراس ، وتطول به الأخيلة فيتمنى ليلا وقفت نجومه ، أو صبحا ضلت ذكاؤه ، وكأنى به ينشد :

---

(١) اسم إحدى مدن بلاد الاندلس .

ورداء ليل بات فيه معانقى طيف ألم لظبية الوعساء
فجمعت بين رضابه وشرابه وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة خرف يدب على عصا الجوزاء

وهذا ثرى جمع المال كل همه ، ولم الوفر همامة نفسه ، لا يؤرث مرقده إلا استثمار لجينه ونضاره ، ولا يقض مضجعه إلا استزادة ضياعه وعقاره ، فهو طوال نهاره يجمع ويطرح ، وسدفة ليله يقدر ويصور ، حتى يثقل رأسه المفعم بالأفكار ، وتخمد جذوة فكره المشتعلة بالأسعار ، فيسلمه الكد إلى الفراش مستوحيا فى هجعته مالم يتم بحثه فى يقظته ، ولعله يرقب فى نومه وحيا وإلهاما لا أحلاما وأوهاما .

وذلك بائس قذفت به الأقدار فهو نضو أسفار ، براه السرى ، وأقعده النوى ، يلتمس لجنبه الراحة فلا يجد مآبا يثوب إليه ، ولا نزلا ينزل فيه ، فأكرم بالثرى موطنا ، وأعظم بالسماء ملتحفا ، يغفو وتشتد غفوته ، فيشعر أنه نزيل قبر ، أو مفترش بسط كسرى ويروح فى سبت عميق .

تلك والدة تحتضن رضيعها وتضمه إلى صدرها ، حتى لتحسب أنها تتمنى أن يعود إلى بطنها ؛ لأن الدنيا يضيق أفقها بعطفها عليه ، فهى لأجله فى شغل دائم ؛ تنام إن نام وتهم متى هم ، تناجيه وتناغيه ، وتلاعبه وتداعبه ، حتى تغازل السنة إنسانيهما فينامان هانئين بذلك الحب السعيد والوله الشديد .

وهل فى الدنيا كلها غير هؤلاء وأشباههم ؟ فمن فيها لم يغمض جفنه ، أو لم يرح جنبه ؟

٢

فى الدنيا غير أولئك وهؤلاء أكثر تعسا وأشد بؤسا من التعيس البائس ، وأعظم لوعة وأقسى حرقة من ذى الكربة اليائس ، فهذه « سعدى » ولهى

القلب، معمودة الفؤاد، مصدعة النفس، مكبوتة الآمال، ضاق بها محيط كنيسة « البشكنس » فصعدت فى سمائها تناجى رب السموات، وتساهر مصباحها والثريات، تشكو إليها همها؛ فى عبارات العبرات أسطارها، وكلمات الكلوم آثارها، فمن حديثها الملتاع ونجواها الزافرة:

ويحى! ويحى! من هذا الذى يزعمونه خالد الأندلس، وسيف الإسلام، وقاهر الشرك، ومعلى كلمة الحق، وأخيرا عاهل يعرب وتميم، ويلى على مطأطىء جباه القياصرة، ومحطم كتائب الجبابرة، ومرهب العتاة الطغاة، والضارب على يد كل معتد أثيم. ويلى عليه لأنه يزعم عنه أنه ثل العروش، وفل الجيوش، بينا أولئك الذين دانوا لسلطانه يأسرون امرأة لا جريرة لها إلا انتسابها إليه، ولا خطيئة سوى رسوخ إيمانها، إنه الآن يسعد بالنوم فى قصر « الزاهرة » على فرش الخز والديباج، وسرر الفضة والذهب، بين حور القيان، وغوانى اليونان، يسقى كئوس النعماء دهقا، ويكرع أكواب السراء غدقا، يصبح فيصطبح إن شاء بخمر الجنان، وإلا فبنت الحان، ويمسى فيغتبق بابنة العنب أو بسلافة الأدب، بين أخدان خافوه فكتموه حقيقة أمته، ورهبوه فخدعوه فى شئون رعيته، حتى مدواله فى الخيال، فأنشد معتزا دون عزة، مفتخرا بغير مفخرة:

رميت بنفسى هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وماصاحبى إلا جنان مشيع ... وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة ... وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى ... أسود تلاقيها أسود خوادر

أين هو من حفيد العباس « المعتصم »؟ ذلك الذى قوض أركان دولة، وأدال تاريخ أمة؛ لأنه أنهى إليه أن امرأة هاشمية وقعت فى أسر « توفيل » ملك الروم، فكانت تنادى « وامعتصماه » فخالف مشيريه، وما أبه أقوال منجميه، وسار فى فيلق جرار يخرب وينهب، ويقتل ويسبى حتى بلغ مكان أسيرته، فضيق

على المدينة الخناق، وأدنى سادتها إلى السياق ، فتحدثت بنجدته الركبان، وسارت بمروءته الأمثال ، ولله أبو تمام إذ قال :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
يارب حوباء لما اجتث دابرهم طابت ، ولو ضمخت بالمسك لم تطب
ومغضب رجعت بيض السيوف به حمى الرضا عن رداهم ميت الغضب
خليفة الله : جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

بمثل هذه العزة القاهرة تسمو الأمم . وعلى تلك النخوة القاسرة تعلو الدول ، لا بذلك الذى يترك المسلة الحسان ، الراسخة العقيدة القوية الإيمان ، بين غوادر الذؤبان ، أولئك الألى طغى عليهم الجحود واستولى، وران على عقولهم الكنود واستعلى ، يتركها سلبية الحربة فى كنيسة لا تسمع فيها إلا لغو القسس ودق النواقيس ، تعلن لاعن التوحيد بل عن التثليث ، فتصم منى أذنى ، فإذا دعانى داعى الصلاة أرهفها لتسمع من يعلو باسم الله صوته فلا أكاد أتخيل لما أتمنى صدى .

أى فخر لهذا الذى يلقب نفسه المنصور؟ وهو من النصر — ولو ملك الخافقين، وخفق لواؤه على الأقسمين — جد بعيد ؛ لأن أسر النساء أسو أمظاهر الخذلان، وأنكى دلائل الطغيان

مالك ياقلبى تؤنبنى ، وتنعى على ثورة جنانى ، ومايجيش به وجدانى فيجرى به لسانى ؟ إنك لتحدث أن المنصور لم يصل إليه بجمل شأنى بل مفصله. ولو أنه ألم به لثارت لكرامته ثورته، ولحفزته لخلاصى همته ، ولنشبت الحرب الزبون، ولقطع إلى المهامه الفيح · بكل سمح لاخوار ولا طليح . أليس المنصور قد أشعل تسعا وخمسين موقعة للحرب لم يسقط له فيها علم ، ولافل له فى جنباتها صارم خذم ؟ وماعلى ياقلبى أن يكون ماتحدثنى به صحيحا إذا قلت ما قلت

وهأنذا فى الإسار نائية عن الوطن . آه ! لو أن أسرى فى غير هذه البقعة ، وبين غير أولئك الطغام لهان الخطب ويسر الكرب ، ولدافعت جنانى أن تجول به هذه الخواطر ، وعقدت لسانى أن يدور بتلك القوارص ، ولكن أنى لى الصبر ؟ وأنا أصبح فى وصب ، وأمسى إلى نصب ؛ أستقبل الصباح القسس والرهبان ، يلوون ألسنتهم بالزور والبهتان ، فأصحو على القذى ، وأغفو على جمر الغضى ، حسبى ياقلبى ولا تذرع بالصبر ولا تجمل بالعزاء .

٣

ذا طرف من حديث تلك المرأة الثكلى ، وأى ثكل أشد من ثكل الحرية ؟ وأى أسى أمض من أسى الإسار ؟ وإنها لتناجى بارثها تارة وتتحدث إلى نفسها أخرى ، بما يعتلج فى فؤادها من تلك اللوعة المعذبة والوحدة المضنية ؛ إذ أسرت إليها إحدى الراهبات التقيات اللائى رثين لحزنها ، وثارت فى نفوسهن من أجل بؤسها عاطفة الإنسانية وتناسين العقائد الدينية — أسرت إليها بأن أحد أعوان المنصور وفد متفقدا مستطلعا ، ولا بد من زيارته تلك الكنيسة ، فهى أعظم كنائس «البشكنس» لما فيها من تهاويل وتماثيل ، ونصب وتصاوير ، مما يبهر الحاذق الصناع ، ويفتن كل مخترع فنان ، ومن لم يمتع طرفه بزيارة تلك الكنيسة فإنه لم ير من آثار حضارتنا شيئا ، فخفق لهذا الخبر المباغت قلب «سعدى» وعلمت أن الله — سبحانه — قد استجاب دعواتها ، فلبثت تعد الساعات ، وتتوهم الأيام سنوات ، حتى رأت الزينات تقام ، وأقواس النصر تنصب ، والأعلام فوق الدور تخفق ، والطرق تعج بالعاملين ، فعلمت أن نائب مليكها فى طريقه إلى الكنيسة ، فزورت فى نفسها كلاما تقوله ، فلما وصل تريثت حتى شاهد الآثار والتحف ، وتأمل فى العاديات والطرف ، ثم تقدمت إليه فى رباطة جأش ، ففصلت من أمرها المجمل ، فاندفعت فى الحديث متدفقة لا يقف فى سبيلها شىء ، فقالت من حديثها :

إن إسارى أنا التى تربطنى بالمنصور بن أبى عامر أكثر من آصرة ، وتصلنى

بأسبابه غير رابطة لأكبر الخزى وأخزى العار ، فأين هذه النجدة التى ينسبونها إليه ، والهمة التى ينعتونه بها ؟ أين هى حتى تقع مسلة مثلى فى شراك هؤلاء المارقين ؟ أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها ، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها ؟ ألست أساوى عند الله أم المنصور نفسه ؟ فلقد قال أمين هذه الأمة « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فهل لو أن الحبيسة أمه أو أخته أيغفل أمرها ويلهو بملاذه عنها ؟ فتبقى بتلك الكنيسة محبسه ، وبكل ذل وصغار ملبسه .

أيها السفير الأمين : إنى لأناشدك الله ذا العزة ، وأستحلفك بالمروءة والنجدة إلا أظهرت المليك على أمرى «فلعل له عذرا ونحن نلوم» ولايخالجنى ريب فى أنه سيجيب داعى النعرة العربية ، ويلبى نداء العزة اليعربية ، فيسعى لخلاصى قائما وقاعدا،رابضا وواثبا،فى سدفة الليل ووميضة الصبح ، فما كان وهو من سلالة الأنجاد من يعرب ، وله خثولة الأنجاد من تميم بالذى يرضى لى الأصفاد ، أو يتريث فى رد حريتى ، وأنا فى هاتيك الأغـــلال . فعاهدها الرسول على أن يدلى إلى المنصور بشكواها، وأنها لابد ناجية من القوم الظالمين.

٤

أنهى الرسول الزيارة بعد أن طوف فى ذلك الإقليم الزاخر بالخيرات الملىء بالعاديات — ماحلاله التطويف ، فلما عاد إلى المنصور وصف له المدينة ورياضها ، والأرباض وغياضها ، والملك وجنده ، والحكم ونظمه ، والقلاع والحصون،والمسارب والسدود،والحيوان والطير ، وكل سائروسارب ، والملك يصغى إليه حتى أتم جميع مالديه ، فسأله مولاه قائلا : « هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ماذكرته ؟ » فقال الرسول : ليس لدى يامولاى من الحديث مايبعث فى النفس غبطة أو يرسل إلى القلب مسرة غير ماقدمت ، فقال المنصور:بل أريد الحقائق مجردة ، وسيان عندى بعد ذلك أن

تسوء أو تسر ، فإنى على هذا العرش مسئول عن رفاهة شعبي ، واستطلاع شئونه : فإما جذلت وزادنى جذلى سعيا فى الخير ؛ وإما وثبت لدفع الضير . فقال الرسول وقد بعث المليك فى نفسه الجرأة وأحياقيه الحمية : وقفت يامولاى فى تجوالى على امرأة أسيرة فى إحدى كنائس « البشكنس » وقد أفضت إلىّ بآلامها وأودعتنى آمالها ، فقطب المنصور أساريره ، وملأت الحفيظة عطفيه ، وقال : كان عليك البدء بقص أمرها فهو آثر عندى من جميع ماقصصت ، واشتد فى تأنيبه لعرضه عليه تافه الأمر دون جليله ، وقال : ويلى من حساب الله يوم تعرض عليه أمرها ! أأهنأ وتشقى ؟ أأسعد وتؤذى ؟ « ثم أخذ للجهاد من فوره ، وعرض من أجناد فى نجده وغوره » وعبأ كل من يستطيع للسلاح حملا ، ثم لبس لأمته وأعد عدته ، « وأصبح غازيا على سرجه ، مباهيا مروان يوم مرجه » وسار يقتحم الغور والنجد ، ويطوى السهل والوعر ؛ حتى وصل بعد يده وسلبه إلى المدينة « ووافى ابن شانجة فى جمعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ماالجلية ؟ ويحلف له بأعظم ألية أنه ماجنى ذنبا ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا » فعنف أرساله وقال لهم : كيف لم ينقض موثقا « وقد عاهدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو حملته فى حواصلها النسور » وقد وصل إلى نبأ ينبيء أنه خان إذ عاهد ، وخاس حين وعد ؛ إذ أحل لنفسه أن يبقى فى أسره امرأة مسلمة ، وجعل مثواها إحدى كنائسه ؛ إشعارا لها بالذلة . فوالله رب محمد لأكتسحن أرضه وأقوضن ملكه ، فقال أحد الرسل : مولاى ، لقد عقدنا لك لواء السمع والطاعة ، فغفرا لذنب لم نتبينه وعفوا عن جرم لم نتعمده ، فقد دخلنا فى الطاعة مسلّمين ، ورضينا بعدالة حكمك طائعين ، فليس من عدلك الذى ملأ الآفاق أن نؤخذ بجريرة لم نتعمد اقترافها ، وقد أقررنا بالخطيئة ، فإما عفوت وإما اقتصصت ، ونحن فى الحالين أرقاء عدلك ، وموالى حكمك ، وإن الملك فى سبيل مرضاتك أمر بالكنيسة المشئومة أن

تهدم ، ومازال ذلك شأنهم يتضرعون متوسلين ، ويتوسلون متضرعين ، يبدأ أحدهم الوسيلة حتى تطير صوابه نظرات الملك الملتهبة فيسعفه غيره . وهكذا دواليك يستدنون طوله، ويستحيون عطفه، حتى صدرت عنه كلمة العفو ، فردت إلى نفوسهم طمأنينتها، وعاد إلى سيدهم ذماؤه .

أما المنصور فقد غير من حالها ، وعاد يسوا كب نعماه على جديها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شرد من نومها، واستحق منها أن تنشده :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا فى العلا وتدور
من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمى بالندى وبحور؟

عبد العظيم على قناوى